لستُ إلّا

أحمد دحبور

العصافير التي لا تنامْ
إبرٌ في المسامْ
وديوني إبرُ
كيف أغفو؟
وإذا كنت أغفو فلمن أصحو؟
وماذا أعيدْ؟
ما الذي أنتظرُ
غير يوم سوف ينتظِرُ
غيرَهُ؟
يا غيرَهُ يا بعيدْ
إختَصِرْ فالبيت عالٍ وما من مصعدٍ،
والضوء مختصرُ
الطريق مختصرُ
الطريق ازدحامْ
والثواني وبرٌ ساقط من ريش روحي،
وجموحي عنيدْ

كلُّ ما لا يرامْ
والأمـاني سينمـا الفقـراءالمتسـاوين
بما خسروا
ونجومٌ نَمَشٌ في جبين الليل،
أحصيها وقد زاد في كفيَ ثؤلولٌ،
وقلّ الحسامْ
هكذا لم يكتشفْني البريدْ
واكتشفتُ الكلامْ
وحـده بين الصدى والصـدى ينشىء
ذاكرةً للرُّخامْ

جملة فعلية: حفروا
جملة إسمية: مطرُ
وأنا.. يا سلامْ!
زارني، حيث أقيمُ، الغمامْ
فَجَعَلْنـا شجـراً غيـر مـا ينبت في
الأرضِ،
ولا شجرُ
فإذا بـي جبل من جليدْ
صَعَدتني بنت حمّىٰ،
وصعّدت خيالي،
فرأت من خلالي كـوكباً مغتـرباً في
الظلامْ
ورأت حولي دماً يلبس البحر،
وبحراً ليس في ملحه ماء،
وماء فاسداً في شرايين رجـال ونساءٍ
هلامْ
جملة فعلية: غبروا
جملة إسمية: حجرُ
ورأتني، وهي في ذروتي، مختلفاً عني
وكُلِّي انسجامْ
في مكانين ووقت وحيدْ
لستُ لغزاً،
فأنا في جراب من ترابٍ،
وأنا في النشيدْ
وأنا ما أريدْ
ـ أنت ماذا تريدْ؟
ـ هل رأيتِ الحجر الفلسفيّ؟

لست أدعو أن يكون معي،
بل أدعيه.. إنه الآن فيّ
ولهذا صنّفوني أخيراً
لهجة في لغة للذهبْ
إنما ما حاجتي بالذهبْ
وأنا أعجزُ من أن يصيرا
عرب اللحظة مثل العربْ
لستْ ربّاً، بل أضعتُ الجليلْ
لستُ إبراهيم.. أين الخليلْ؟
لستُ إسماعيل إن قيلَ: زمزمْ
لست موسى بل دماء القتيل
لست أُحْيـي لأكون ابن مريمْ
لست إلا حجـراً غير ملمـوم ولم تنأ
الحوادث عني
لست إلا حجراً.. وأغنّي:
سائق الأظعان عرِّجْ عليّ
والتقطْ مـا يتساقط من روحي، وأرِّخْ
بجروحي يديّْ
فأنا مَنْ كلما جئتُ أرضاً زارعاً فيها
دمي ـ
ردّت الأرض بقايا علمي وكتابـي،
وأعادتني إلى أول السطرِ،
فجاء العسكريُّ وجئتُ
كنت في مقتبل الأرجوانْ
ولقد كان عيياً كموسىٰ،
فتولى السوط دور اللسانْ:
أنت ممحوٌّ..

ولا بأس..
لكن أنت مكتـوبٌ، ومن يمـحُ يكتبْ ـ
إنّ هذي، وحدها، مهرجانْ
وابتدأنا: لم يقل كن.. وكنتُ
وأنا قلت له: كن، فخانْ
هكذا صار كليماً موسى،
وكموسى قتل النفسَ،
لكنّ جروحي تسأل العسكريّ:
أيُّ سرٍّ يختفي في الأساريرِ؟
لماذا الحجر الفلسفيّ
ذهبيُّ المعجزات ولكن ليس في قدرته
أن يعيد الماء في الوجه دماً؟
ثم ألقي جانباً بالعسكريِّ،
وأدعو أحداً ما، ويكون الدعاءْ:
كيف لي أن أعيدْ
شجراً هذا الحشيشَ الغبـيّ؟
كيف لا أرسب في الكيمياءْ
بينما يطفو بريق الحليّ
ويفيق البرد والتوتياءْ؟
ـ لم تقل ما تريدْ
ـ أن يخفَّ صداعي مرة حتى أرى
ساعتي دون وقتٍ،
دفتري دون ديونٍ،
رحيلي في اتجاه القهقرى
ولأكنْ أيَّ كلامٍ، وأغمدْ في غيابـي
هكذا،
وسأعطي العهد: ألاّ أنطح المدَّ،
أو أجترح الوردةَ،
أو أفتح الأخبارَ..
ما أخبار داري؟
رحيل في رحيل في رحيل،
وإبراهيم يفدي بابنه حلماً من شأنه أن
يستعيد النعيمْ
وفديناه بذبح عظيمْ
هل أنا الكبش؟
وإلا فماذا موتيَ اليوميُّ؟
ماذا دمي كل اختلاف واتفاق وعيدٍ؟
ولماذا عيدهم كلَّ يومْ؟
إنه نَزْفي ولا يشعر النائم،
حَتْفي ليس أضغاث نومْ
ليس مسموحاً لك الموت إلا مثلمـا
شِئْنا،
وشِئْنا
فغادِرْنا طريداً،
وأنا شئتُ أني حجر ما في تظاهرةٍ ما،
فإذا ما اقتَلَعَتْني البوادي
عيَّرَتْني ريحها بابتعادي
فإذا ما عدتُ ثانيةً أزبدَ بحر،
ومحاريثُ جوٍّ،
وأتى البرُّ بسفح مُعادِ
لم أصافح قاتلي،
وأتاني نبأ عني فهل دون علمي كنتُ
صافحتُ؟
إذن فلماذا القتل بعد القتل؟
رأس تنادي:
جسدي أين؟
أصابع طفل في الجهات الخمس،
تلقي اتهامات العصـافير على الليـل
والشمس،
على الحاضر والأمس،
والحائر والواعي،
على الصمت والمذياع،
أبنـاءالأفاعي يمـوتون احتفـاء بوفـاتي
مساءً،
ويعودون يموتون في الفجر،
لأن الصحف اكتشفت أني ثقبـتُ
الموتَ،
موتوا بما كنتم تريدون ليَ الموتَ،
إني لست مكتوباً على الموت،
هذي لحظتي ألفُ عامٍ،
وجسمي يولد الآن مراراً،
جهاراً، ونهاراً، ويوافي البريدْ
ـ مع هذا لم تقلْ ما تريدْ
ـ ليس إلا فرصة للنشيدْ
لتكن أرضكِ جرداء ما شاءت،
ليبق الماء ماء كما شاء،
ليبق الخوف تاجاً على رأسك،
لا يبصره غير أبطال الحكايات،
ولكن دعي لي حلمي أو فكرة عنه..!
أعْني: هل كثير لو حلمت بنبعٍ،
وجعلت النبع يجري من القلب إلى
القلبِ؟
أنا لستُ إلا حجراً،
لا أطلب النبع لي،
بل أطلب النبع ليُروي الكلامْ
قبل أن يُعتصر الراويهْ
في بوادٍ سقفها الهاويهْ
بعضَ نبعٍ ليمرَّ النشيدْ
بعض إعياء يمكن أعضائي من النوم،
فنومي فقيدْ
ـ حجر أم حجر الزاويهْ؟
السؤال المتحدّي وحيدْ
ووحيد كالسؤال أنا،
محتفِلٌ بـي، والطريق ازدحامْ
غارق في عرقي..
أين نبعي؟ غارق لكنني أستزيدْ
والعصافير التي لا تنامْ
سرّها عندي وسرّي عنيدْ
والعصافير التي لا تنامْ
لم تدع لي قشة من كلامْ(*)

(*) من قصائد مهرجان المربد السادس.